اسم الدرس : تفسير سورة الأعلى

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اليوم بإذن الله –عزَّ وجلَّ– نتحدث عن سورة الأعلى، في وقفات مع سورة الأعلى. وقبل أن نتكلم عن سورة الأعلى، دائمًا نؤكد أن القرآن نزل على واقع مختلف. فقد كان الصحابة بل كان النبي –صلى الله عليه وسلم– ينتظر آيات القرآن كنوع من أنواع التثبيت، قال الله عزَّ وجلَّ: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً"[الفرقان: ٣٢]. فالكافرون كانوا يريدون أن ينزل كله من أول يوم، والنبي –صلى الله عليه وسلم– يبلّغه كله مرة واحدة.

"كذلك" أي: أنزلناه مفرقًا منجمًا.

"كذلك لنثبت به فؤادك"[الفرقان: ٣٢] أي: كانت تمر على النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو من هو، تمر عليه لحظات يحتاج فيها إلى نزول القرآن حتى يكون تثبيتًا له. قال تعالى: "وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ"[هود: ١٢٠] في آخر سورة هود.

إذًا النبي –صلى الله عليه وسلم– كانت تمر عليه الأزمات؛ الأزمة تلو الأزمة، وكان يحتاج إلى آيات من الله –عزَّ وجلَّ– ليَثْبت "كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا"[الفرقان: ٣٢].

فإذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– والصحابة مروا بأزمات يحتاجون فيها إلى نزول القرآن، فما بالك بالأزمات التي نمر بها نحن؟ لو لم يكن لدينا اتصال بالقرآن كنا سنضيع!

والمثل الذي أحب أن أذكره دائمًا: موقف سيدنا أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. فعند وفاة النبي اضطرب المجتمع كله، فأحيانًا يمكن أن يقع بلاء يزلزل المجتمع كله. ونجد سيدنا عمر يقوم فيقول: من قال إن محمدًا قد مات قطعت عنقه؛ إنما ذهب ليلقى ربه، أما سيدنا عثمان لم يستطع أن يتكلم، وسيدنا علي سقط. فلما جاء سيدنا أبو بكر لم يعتمد على إقناعهم، لم يقل لهم: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان بشرًا، وبما أنه بشر فمن الطبيعي أن يموت، والأنبياء من قبله ماتوا بدليل أنهم لا يعيشون معنا الآن. لو أنه قال ذلك لم يكن ليصدقه أحد؛ لأن الصدمة كانت أكبر من أن تُحل بالنقاش العقلي. عندما قرأ: "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِينْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ"[آل عمران: ١٤٤]، ولما قال: "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ"[الزمر: ٣٠]؛ اندهش الصحابة أن هذه الآية في القرآن. ولما تيقنوا أنها في القرآن صدقوا أبا بكر، فقالوا: قد مات بالفعل.

لذلك أحيانًا غياب آية واحدة عن المجتمع يمكن أن يُدخلك في دوامة من عدم الاستبصار وعدم الفهم، عندما نتكلم بعقولنا بعيدًا عن الوحي يمكن أن يدخل الناس كلهم في دوامة، في تيه، فالصحابة كانوا ينتظرون الوحي.

للأسف نحن نتعامل مع القرآن من خلال الكلمة ومعناها فقط... "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى* وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى* فَجَعَلَهُ غُثَاء أحوىً"[الأعلى: ١-٥] ما معنى غثاء؟ ما معنى أحوى؟

وهذه الآيات نزلت في وقت عصيب. أغلب السور المكية نزلت في وقت عصيب جدًا، وأزمات رهيبة، فتخيل سورة مثل سورة الأعلى جاءت تثبت الناس، لذلك علينا أن نبحث عن المعاني الموجودة في السورة التي جاءت لتثبت الناس.

ولكي نعيش مع معاني سورة الأعلى نحتاج إلى أن نعود للسور الواقعة قبل سورة الأعلى؛ سورة الطارق، وقبل سورة الطارق: البروج.

تعالوا لنرى الجو المحيط بسورة البروج وسورة الطارق، وبالتالي النتيجة التي من المفترض أن نعيشها في سورة الأعلى.

نزلت سورة البروج لتعرفك أن أحد أساليب أهل الباطل لمحاربة أهل الحق هي: الحرب الإبادية الجماعية، أن يقوموا بحرب إبادة، حرب استئصال. فأهل الباطل يتعاملون مع أهل الحق بطرق كثيرة مثل: السخرية، الاستهزاء، محاولة الطعن في القادة، شخصنة الدين، هدم قضية الوحي، التشكيك في الرسل... ثم يصلون لمرحلة من قمة الغيظ "يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا"[الحج: ٧٢]، فيصل الكافر لمرحلة أن الذي يقول آية سيسطو به، ويقتله.

يصل أهل الباطل لمرحلة من الغيظ من أهل الحق أنهم يريدون إبادتهم جميعا وليس خطف أو تعذيب البعض مثلا، لا، يريدون إبادة أهل الحق كلهم! والله سبحانه وتعالى أخبرنا عن نموذج، وأن هذا النموذج حصل من قبل بالفعل. فقد أباد أهل الباطل طائفة مؤمنة فشقوا لهم الأخاديد وأحرقوهم...

تعرفون القصة التي وردت في سورة البروج، لما قال الناس آمنا برب الغلام، شُقّت لهم أخاديد في الأرض وأُوقدت عليهم النار وأُحرقوا. ربنا سبحانه وتعالى أنزل هذه السورة في مكة، وأهل مكة لا علم لهم بالذي سيحدث مستقبلاً، كأن الله تعالى يخبرهم أن من المحتمل أن يحدث لكم كما حدث لأصحاب الأخدود فيشعلون النار عليكم، لا بأس لا بدَّ أن تضعوا كل الاحتمالات في الحسبان؛ تخيل شعور

الصحابة لما نزلت عليهم هذه الآيات! هذه الآيات لم تنزل للتخويف فقط إنما نزلت لتثبتك، ربنا سبحانه وتعالى يطمئننا وكل معركة استعملها أهل الباطل كان وراءها نوع من أنواع الطمأنة للمؤمنين.

ربنا في أول السورة يخبرنا أنهم سيحاولون إبادة أهل الحق، ولكن في آخر السورة "هل أتاك حديث الجنود"[البروج: ١٧] أي كثير غيرهم جمعوا الجنود وحاولوا أن يبيدوا أهل الحق، "هل أتاك حديث الجنود* فرعون وثمود* بل الذين كفروا في تكذيب* والله من ورائهم محيط* بل هو قرءان مجيد"[البروج: ١٧-٢١] ما علاقة ذكر القرآن المجيد بحرب الإبادة هذه؟ ربنا سبحانه وتعالى يطمئنك على الدين لا على نفسك، إذا كنت خائفًا على الدين ستطمئن، أما إذا كان خوفك على نفسك فلن تطمئن، "وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية"[آل عمران: ١٥٤] من كان كل همه أن ينجو بنفسه ولا يُخدش خدشة واحدة، هذا سيظل طوال الوقت قلقًا ومسيئًا الظن بالله. أما الذي همه هو انتصار الدين عندما يقرأ القرآن يطمئن أن الدين سينتصر، لأن الله سبحانه وتعالى يطمئننا عن الدين ويبكّت أهل الباطل أنهم لن يقدروا على فعل شيء. ربنا عز وجل يخبرهم أن ((القضية ليست متعلقة بحَمَلَة الحق إنما بالمصدر الذي يبني أهل الحق وهو القرآن))

كأن "بل هو قرءان مجيد"[البروج: ٢١] أي اقتلوا من شئتم وأبيدوا من شئتم فإن القرآن محفوظ، "بل هو قرءان مجيد* في لوح محفوظ"[البروج: ٢١-٢٢] لن تقدروا على فعل شيء ومهما قتلتم أهل الحق فإن القرآن باقٍ وسوف يخرج أنصار آخرون للحق، فهمتم الفكرة؟ أنت لما تقرأ آيات مثل هذه تفهم أن القرآن محفوظ فتطمئن. ربنا سبحانه وتعالى لا يقول إن أحمد أو ناجي أو محمد محفوظون -تحدثنا سابقا عن معتقد فكرة المجموعة والأفراد، الحفظ للمجموعة ولعقائد المجموعة، وسنن الله تعالى في المجموعات غير سننه في الأفراد- هنا الله سبحانه وتعالى يقول لهم: "بل هو" أي المجد...

المجد سيكون لأهل الحق لأن القرآن مجيد وفي لوح محفوظ، لن يقدر أحد على المساس بالقرآن.

سأضرب لك مثالاً: تخيل أنهم يريدون أن يمنعوا العسل، وعندنا الملكة التي تنجب الكثير من النحل الذي ينتج العسل. حاولوا إبادة كل النحل الموجود وهذه الملكة موجودة في مكان لا يصل إليه أحد، فأنت تقول لهم: مهما قتلتم من النحل فإن الملكة التي تنتج هذا النحل محفوظة لا يصل إليها أحد. لله المثل الأعلى كأن هذا القرآن هو المصنع الذي يُخرج الرجال؛ مهما أبادوا فالقرآن سيبني رجالاً آخرين، هم يقتلون والقرآن يُخرج رجالاً آخرين "بل هو قرآن مجيد". لذلك أحد الأقوال في تفسير قول الله -عز وجل- في سورة الحج: "مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ"[الحج: ١٥] كأن ربنا سبحانه وتعالى يقول لأهل الباطل: سأعلمكم كيف تبيدون أهل الحق إبادة لا قومة لهم بعدها، أنا

سأطلعكم على السر -تهكمًا واستهزاءً بهم- يقول لهم: "من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة" من عنده أدنى ظن وشك أن ربنا لن ينصر النبي صلى الله عليه وسلم؛ سأدله على خطة يبيد بها الدين، ماذا يفعل؟ "فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع" أي فليقطع الوحي "فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ".

الآية التي بعدها مباشرة ما هي؟ "وكذلك أنزلناه آيات بينات"[الحج: ١٦] لن يقدر على قطعها. إذًا الحل الوحيد من أجل أن ينتصر أهل الباطل على أهل الحق هو ماذا؟ أن يقطعوا الوحي، أن يقطعوا اتصالنا بالقرآن، وهم قد بدأوا يدركون هذا الأمر، فشلوا في تغيير القرآن بعد أن ذهبوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقالوا له: "ائت بقرآن غير هذا أو بدله" في سورة يونس "قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي"[يونس: ١٥] قال لهم: لن أبدله... قالوا له: حسنًا، غيِّر آيات واترك آيات "الذين جعلوا القرآن عضين"[الحجر: ٩١] أو شيئًا قليلاً "وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا" [الإسراء: ٧٤] رفض النبي -صلى الله عليه وسلم- فتركوه... وقالوا: "شاعر نتربص به ريب المنون"[الطور: ٣٠] كلها مدة قصيرة وسيموت. قالوا: هو كلام يوشك أن ينفد. فنزل قول الله عز وجل: "وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ" [لقمان: ٢٧] سيُجن جنونهم من التعامل مع القرآن. قالوا: لا يوجد حل إلا أن نقتلهم ونبيدهم، فقال الله سبحانه وتعالى لهم "بل هو قرآن مجيد* في لوح محفوظ".

لماذا ذكر فرعون وثمود تحديدًا؟ "هل أتاك حديث الجنود* فرعون وثمود"[البروج: ١٧-١٨] فرعون وثمود نموذجان من الذين حاولوا قتل الآية عندما ظهرت، كلاهما استعمل وسيلة القتل للآية حتى لا تظهر أمام الناس. فرعون لما عرف -سواء في رؤيا أو غيره- أنه سيأتي من بني إسرائيل من يأخذ ملكه، قال: اقتلوا كل الأطفال، وأي آية كانت تظهر حاول إخفاءها بأسلوب القتل. كذلك ثمود، الآية التي أُخرِجت لهم هي الناقة فقتلوها وعقروها... لا يريدون ترك الآية ظاهرة للناس فيقومون بقتلها، كانوا يستعملون أسلوب القتل من أجل إبادة الآية. الله عز وجل يقول لك: الآية التي أنزِلت إليك لا تُقتَل! ما هي هذه الآية؟ إنها القرآن... الآية التي أُنزِلت إليك لا تُقتَل ولا تُحَرَّف ولا تُبَدَّل فأنت منتصرٌ قطعًا.

إذًا نخرج من سورة البروج في قمة الطمأنينة على الدين. نذهب للسورة التي تليها، لا تنسوا إننا كل هذا نمهد للدخول لسورة الأعلى...

بعد سورة البروج تأتينا سورة الطارق، سنأخذ منها لقطة، "والسماء والطارق* وما أدراك ما الطارق* النجم الثاقب* إن كل نفس لما عليها حافظ"[الطارق: ١-٤].. بدأت هنا السورة...

السورة الأولى–البروج– قالت إنك من المحتمل أن تموت لكن القرآن محفوظ، السورة الثانية –الطارق– تقول إن الله حافظ، الله حفظ السماء باتساعها، وهو رقيب على كل نفس فبالتالي هو قادر على أن يحفظك ويحفظ هذا الدين، ويُعرِّفك أن هناك أناسًا يمكرون مكر الليل والنهار في الغرف المغلقة "يوم تبلى السرائر"[الطارق: ٩] ، هناك أناس مختفون وبداخلهم أسرار لهدم هذا الدين، فالله في النهاية يُطمئنك ويقول لك: "والسماء ذات الرجع* والأرض ذات الصدع* إنه لقول فصل"[الطارق: ١١–١٣].. مرة أخرى الختام بالقرآن، القول الفصل: القرآن، السماء ذات الرجع: أي السماء تنزل مطرًا فينزل على الأرض فتتصدع الأرض فيخرج نبات وتتبخر المياه فترجع ثانية إلى السماء وهكذا في دورة كونية متتالية إلى يوم القيامة، إذا توقفت يهلك الناس، نزول المطر من السماء وخروج النبات من الأرض.. "إنه لقول فصل" كما أن من سنن الله الكونية أن يستمر نزول الماء من السماء ويخرج النبات من الأرض كذلك من سنن الله الباقية أن معاني القرآن ستستمر في النزول على قلوب أهل الإيمان فتخرج بمعانٍ ورجال يعملون للدين، وهذه الدورة أيضا لا تتوقف، نفس الختام السابق "بل هو قرآن مجيد" ربنا يطمئنك أن دورة القرآن لا تتوقف، وأيضا الختام هنا بالتأكيد "إنهم" وبصيغة المضارع "يكيدون" وبالمفعول المطلق المرعب "يكيدون كيدا" أي هناك يقتلون وهنا يكيدون، لأجل ذلك هنا مع الكيد ناسب قول الله – عز وجل – "يوم تبلى السرائر" مع الكيد.

"إنهم" عندما قال الله إنهم يكيدون استخدم صيغة التوكيد، فلماذا لم يستخدمها عندما قال أنه يكيد؟ لأننا واثقون بالله ولا نحتاج أن يؤكد لنا الله فهو قال: "وأكيد" ولم يقل وإني أكيد، فهو عندما قال "إنهم يكيدون كيدا" كان من المتوقع أن يكون العطف بحرف توكيد وإني أكيد كيدا لكنه قال "وأكيد كيدا"، فأنا مطمئن أن الله –عز وجل– لن يتركهم، "والله من ورائهم محيط" نفس كلام سورة البروج.

في ظل أخطر حربين ضد الدين حرب الإبادة الجماعية، وحرب الكيد الذي لا يتوقف، الكيد المؤكد الذي عبر عنه بصيغة المضارع والمفعول المطلق الذي لا يتوقف.. هنا.. قلبك من الممكن أن تختل عنده معاني اسم من أسماء الله، عندما ترى أهل الباطل واقفين في الأعلى ويعذبون أهل الحق في الأسفل ويدهسونهم ويرمونهم في الأخاديد المشتعلة... هذا المشهد قد يجعلك تسيء الظن باسم الله ((الأعلى))

فتأتي هذه السورة بعد هذين الموقفين من التقتيل والكيد تقول لك: نَزِّه اسم ربك الأعلى "سبح اسم ربك الأعلى"[الأعلى: ١].

كما جاء في قصة أصحاب السبت؛ العاصي يوم السبت كان يأكل الحيتان، والطائع لا يستطيع أن يأكل الحيتان! فأحيانًا في هذه المواقف تُسَهَّل على أهل المعصية فعل المعصية، وتُصَعَّب على أهل الطاعة فعل الطاعة ابتلاءً واختبارًا، هنا أنت من الممكن أن تسيء الظن باسم الله الرزاق، عليك أن تنَزِّه اسم الله الرزاق، أنت لا تفهم ... فهنا أنت تحتاج أن تَعلَم من هو الأعلى سبحانه وتعالى، لذلك في مواقف الهزيمة أو مواقف الكيد لأهل الباطل، تحتاج أن تتذكر من هو الأعلى سبحانه وتعالى، لذلك قال تعالى: "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون"[آل عمران: ١٣٩] متى قيلت؟ ونحن مهزومون في غزوة أحد، فأنت تحتاج من يقول لك في الهزيمة إنك أنت الأعلى، مثلما قال ربنا لسيدنا موسى: "لا تخف إنك أنت الأعلى* وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا"[طه:٦٨-٦٩]، إذًا أنت في هذه المواقف، حتى لا يسيء قلبك الظن بالله، تحتاج أن تنزه اسم الله الأعلى، لا تَقِس الأمور بظواهرها، فتأتي هذه الآية وتقول لك إياك أن تسيء الظن بالله، الله -عز وجل- هو الأعلى، والذين يؤمنون به هم الأعلون وحزب الله هم الغالبون. هذا الكلام بالنسبة لقصار وضعاف العقول يتناقض مع ظاهر الأحداث.

تأتي السورة تُفهِمك اسم الله الأعلى، سَبِّح: أي نزه اسم ربك الأعلى، أي أنك تفهم اسم الأعلى خطأ، وأنه بدأ يحدث على قلبك شوائب، ولم تعد ترى اسم الله الأعلى بشكل واضح فتحتاج أن تنزه هذا الاسم.

لذلك قيل من معاني الآية، وقد قيل أكثر من معنى، فما معنى أن أنزه اسم الله الأعلى؟

قيل: لا تسمِّ أحدًا بهذا الاسم.

وقيل: لا تعتقد أن هذا الوصف على الإطلاق يكون لأحد إلا لله جل وعلا.

وقيل: لا تذكر هذا الاسم إلا وأنت تستحضر قدرة ربنا.

فلا يصح أن تقول اسم الله (الأعلى) وأنت غير مستحضر علو الله على العرش وعلو الله عز وجل والهيمنة على الكون.

لا يصح أن تقول أسماء الله وأنت غير مستحضرها.

لهذا سيأتي معنا في السورة "وذكر اسم ربه فصلى"[الأعلى: ١٥] ؛ لما ذكر اسم ربنا ذكرًا حقيقيًا انطلق في الصلاة.

مثلما ذكرنا في المرة الماضية قول الله عز وجل: "ألا إن لله ما في السموات والأرض ألا إن وعد الله حق"[يونس: ٥٥]، أنك كلما أيقنت أن لله ما في السموات والأرض، أيقنت أن وعد الله حق.

هذا يعني أنك كلما ازداد يقينك بالتدبر في الكون، كلما ازداد يقينك في وعد الله.

لذلك فالمتدبرون في أواخر سورة آل عمران؛ هؤلاء الموقنون حتى في أوقات الهزيمة، موقنون بنصر الله –عز وجل– وبوعد الله عز وجل.

"سبح اسم ربك الأعلى" نتأمل السورة سويا.

قلنا في خواتيم السورتين السابقتين بم كانت البشرى؟

هل إنكم ستنتصرون وستهزمونهم وستقتلونهم؟

لا، فماذا إذن؟! بحفظ القرآن.

وما البشرى في حفظ القرآن؟

البشرى ببقاء القرآن لأن القرآن سيصنع رجالاً، فالمعركة الأولى التي نخوضها هي معركة القرآن، فالقرآن المكي في أغلب السور المكية يثبت هذه المعركة، فيجب عليك أن تنتصر في هذه المعركة أولاً –معركة القرآن– وأنك إذا انتصرت فيها ستُيَسَّر بعدها لليسرى، ستمشي في الطريق الصحيح السليم.

وإن لم تنتصر فيه ستمشي في طريق معقد.

"سبح اسم ربك الأعلى": هنا أتت صفات لله –عز وجل– "الذي خلق فسوى* والذي قدر فهدى* والذي أخرج المرعى*فجعله غثاء أحوى* سنقرئك فلا تنسى"[الأعلى: ٢-٦]

لم هذه الصفات بالتحديد؟

بعض المفسرين قالوا هذه الصفات لا يقدر عليها إلا الله، فتناسب اسم الله الأعلى، فهو الأعلى في هذه الصفات لا ينازعه أحد في هذه الصفات، صفة الخلق خصيصًا صفة تسكب في قلب الإنسان الطمأنينة، وأول صفة بدأ بها القرآن: "اقرأ باسم ربك الذي خلق"[العلق: ١] لأن الخلق يكون من عدم فمهما كانت الظروف كالحة مسودة فالله قادر على أن يخلق الأسباب التي انعدمت أصلاً، من عدم... فالخلق صفة تطمئن الإنسان "الذي خلق فسوى* والذي قدر فهدى* والذي أخرج المرعى* فجعله غثاءً أحوى"

ما علاقة الأربع آيات هذه بقوله تعالى: "سنقرئك فلا تنسى* إلا ما شاء الله"؟ وبجريمة القتل والإبادة وجريمة الكيد والطمأنينة في حفظ القرآن؟

نريد أن نربط الآيات ببعضها، فلدينا في السور السابقة جريمتان من أبشع الجرائم ضد الدين؛ جريمة الإبادة وجريمة الكيد، هاتان الجريمتان أنت محتاج معهما أن تطمئن أولا على الدين وليس على نفسك، فربنا يطمئننا في الثلاث سور على الدين، ويبشرنا أن الدين سينتصر عن طريق أن ديننا في القرآن والقرآن محفوظ والقرآن سيخرج رجالاً، لأن معركة أهل الباطل الأولى مع القرآن.

فما علاقة هذا الكلام بهذه الأربعة صفات من صفات الله "الذي خلق فسوى* والذي قدر فهدى"، كل خلق الله –عز وجل– ربنا – سبحانه وتعالى– قدَّر له وظيفة معينة، هذه الوظيفة سواء دينية أو دنيوية الله –عز وجل– هيأه لهذه الوظيفة... مثل قول سيدنا موسى لفرعون: "ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى"[طه: ٥٠]؛ أعطى للطائر خلقه، أعطاه منقارًا ثم هداه كيف يستعمل هذا المنقار، وأعطى للنحلة خلقًا معينًا ثم هداها كيف تستعمل هذه الأدوات، وكذلك الإنسان أعطاه خَلقًا وهداه لاستعماله، هذه هي المكاسب الدنيوية التي يشترك فيها الإنسان والحيوان.

لكن الإنسان مفطور، وفطرته يستطيع أن يتلقى بها الوحي.

لما نقرأ قول الله عز وجل: "والتين والزيتون* وطور سينين* وهذا البلد الأمين* لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم* ثم رددناه أسفل سافلين"[التين: ١–٥]

الله –عز وجل– أقسم بثلاثة أماكن؛ التين والزيتون في الشام، وطور سينين في سيناء، وهذا البلد الأمين وهي مكة.

في الشام سيدنا إبراهيم، وفي سيناء سيدنا موسى، وفي مكة النبي صلى الله عليه وسلم، هذه الأماكن شهدت مهبط الوحي، فربنا يقسم بأماكن نزول الوحي على أن الإنسان مخلوق في أحسن تقويم، فربنا خلق الإنسان يستطيع أن يتلقى الوحي، مثلما خلق له بطنًا يستطيع أن يتلقى بها الغذاء فينمو، خلق له قلبًا وعقلاً يستطيع أن يتلقى به الوحي فتتغذى روحه... فكما أن الله –عز وجل– خلق جسمك هذا قابلاً لأن يتغذى –يحتاج غذاءً– فكذلك روحك قابلة لتلقي الوحي، لو تلقيت الوحي ستصبح في أحسن تقويم وأعلى عليين، ولو ابتعدت عن الوحي ستهبط لأسفل سافلين.

أغلب السور في هذا الجزء من جزء عم تشير لهذا المعنى.. كما قال تعالى في سورة الشمس: "فألهمها فجورها وتقواها* قد أفلح من زكاها* وقد خاب من دساها"[الشمس: ٨–١٠]

إذًا أنت تستطيع أن تتلقى الوحي؛ لتصل إلى أعلى عليين ولو بعدت عن الوحي ستهبط لأسفل سافلين، فربنا يقول: "الذي خلق فسوى* والذي قدر فهدى".

النبي -صلى الله عليه وسلم- خلقه الله -عز وجل- ليتلقى هذا النور الذي سيغير العالم، وخلق المؤمنين يتلقون هذا النور، وقدَّر تقديرات معينة وهدى الناس، هذا بالنسبة للغذاء الروحي.

بالنسبة للغذاء المادي؛ ربنا أخرج لهم المرعى "والذي أخرج المرعى"، انتهبوا لهذه الآية "فجعله غثاء أحوى" ما معنى غثاء أحوى؟ غثاءً قالوا: أي تيبَّس وتكسَّر، وأحوى قيل: متغيرًا، وقيل: أسود.. الشاهد أنه ذكر بعدما كان المرعى لينًا ونَضِرًا وأخضر ويُغذي، هذا الغذاء المادي يتحول إلى غثاء أحوى.

"سنقرئك فلا تنسى" غذاء البطون يأتي عليه الزمان فيتغير ويتحول إلى غثاء أحوى، أما الغذاء الروحي الذي تتغذاه أنت وأمتك لن تأتي عليه هذه المرحلة، لن يتحول إلى غثاء أحوى؛ لأن القرآن لو تحول إلى غثاء أحوى ستنهار هذه الأمة، فكانت البشرى: سيستمر نزول الوحي ولن تنساه، فبالتالي "ونيسرك لليسرى"[الأعلى: ٨] أي اليسرى في الدنيا من التمكين واليسرى في الآخرة من الجنة، ستكون كل أمورك ميسرة طالما تلقيت الوحي كاملاً ستُيَسَّر لليسرى.

نفس البشرى في قوله تعالى: "بل هو قرآن مجيد"[البروج: ٢١] ، ونفس بشرى: "والسماء ذات الرجع* والأرض ذات الصدع"[الطارق: ١١-١٢] ، هي نفس بشرى: "سنقرئك فلا تنسى" أن الوحي مستمر، ومهما فعلوا لن يمنعوه، ولو اجتمع أهل الأرض ليُحرِّفوه لن يقدروا، ولو اجتمع أهل الأرض ليأتوا بمثله لن يقدروا "لا يأتون بمثله"[الإسراء: ٨٨] ، "ولن تفعلوا"[البقرة: ٢٤] الموضوع منتهٍ.. هذه البشرى في الأزمات أننا معنا القرآن ماذا سيفعلون فيه؟ لن يفعلوا شيئًا، لن يقدروا، أنت تتحدى به والعرض قائم إلى يوم القيامة، التحدي أن يأتوا بسورة؛ لا يقدر، فتلك طُمَأنِينَة.

"سنقرئك فلا تنسى* إلا ما شاء الله"[الأعلى: ٦-٧] لتظل متعلقًا بالله دائمًا، وتبذل المجهود، ليس معنى أن الله سيحفظ لك القرآن أن لا تبذل المجهود، "إلا ما شاء الله"، وقيل إنها نُسِخت.

"إنه يعلم الجهر وما يخفى"[الأعلى: ٧] التي بعدها "ونيسرك لليسرى"، التيسير قيل: ونيسرك لليسرى أي العمل، فكانت العقيدة والعلم والفهم كانت في القرآن... عندما تتشرب القرآن بطريقة صحيحة ستجد العمل مُيسَّرًا، فتنطلق.

إذًا الله يقول: بالرغم من كل العقبات التي سيضعونها أمامك من حرب إبادة أو من كيد »»«

طريقك للتمكين مُيسر..

طريقك للجنة مُيسر..

طريقك للنصر مُيسر..

مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: "قل اعملوا فكل مُيسَّر لما خُلِق له"[1].

"خلق فسوى" ربنا خلق الناس على خَلْق وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له.

فربنا يُطَمئن النبي –صلى الله عليه وسلم– لا تخف على الوحي؛ لأن الوحي لو ضاع، كل شيء سيضيع.

المجتمع المكي ثلاثة عشر عامًا يُربِّي على هذا المعنى؛ السلاح الذي معنا في مكة هو الوحي، حرب كفار مكة كلها على أنهم يريدون إبعاد الصحابة عن القرآن، كل المحاولات أنهم يبعدوه وأن يطيعهم ولو في شيء بسيط في البعد عن القرآن.

لكن الثبات طالما أنت تتلقى القرآن، والقرآن ربنا يقول فيه: "سنقرئك فلا تنسى" وهذا الغذاء لن يتحول إلى غثاء أحوى، "لا يخلق على كثرة الرد"[2] لا يبلى، القرآن من ألف وأربعمائة عام وما زال يُخرِج المعاني، وما زلنا نحتاجه، وسنظل نحتاج له في كل لحظة، إلى أن تقوم الساعة نحن بحاجة للقرآن.. دون القرآن نسير في التيه، نسير في العسرى، إذًا أنت هكذا تُقدِّم لهم النصر، هم انتصروا عليك، عندما تبتعد عن القرآن، بُعدنا عن القرآن يعني انتصارهم!

---

١ [عن علي بن أبي طالب:] عَنِ النبيِّ ﷺ: أنَّه كانَ في جَنازَةٍ فأخَذَ عُودًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ في الأرْضِ، فَقالَ: ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النارِ أوْ مِنَ الجَنَّةِ، قالوا: ألا نَتَّكِلُ؟ قالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، **{فَأَمَّا مَن أَعْطَى واتَّقَى}** [الليل: ٥] الآيَةَ.

البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٧٥٥٢ • [صحيح].

٢ [عن علي بن أبي طالب:] عن الحارثِ قالَ مررتُ في المسجِدِ فإذا النَّاسُ يخوضونَ في الأحاديثِ فدخلتُ على عليٍّ فقلتُ يا أميرَ المؤمنينَ ألا ترى أنَّ النَّاسَ قد خاضوا في الأحاديثِ؟ قالَ وقد فعلوها؟! قلتُ نعَم قالَ أما إنِّي قد سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ ألا إنَّها ستكونُ فتنةٌ. فقلتُ ما المخرَجُ منها يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ كتابُ اللَّهِ فيهِ نبأُ ما كان قبلَكم وخبرُ ما بعدَكم وحُكمُ ما بينَكم وهوَ الفصلُ ليسَ بالهزلِ مَن تركَهُ مِن جبّارٍ قصَمهُ اللَّهُ ومن ابتغى الهدى في غيرِهِ أضلَّهُ اللَّهُ وهوَ حبلُ اللَّهِ المتينُ وهوَ الذِّكرُ الحكيمُ وهوَ الصِّراطُ المستقيمُ هوَ الَّذي لا تزيغُ بهِ الأهواءُ ولا تلتبِسُ بهِ الألسِنةُ ولا يشبعُ منهُ العلماءُ ولا يخلَقُ على كثرةِ الرَّدِّ ولا تنقضي عجائبُهُ هوَ الَّذي لم تنتهِ الجنُّ إذ سمعتْهُ حتّى قالوا **{إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ}** من قالَ بهِ صدَقَ ومن عمِلَ بهِ أُجِرَ ومن حكَمَ بهِ عَدلَ ومن دعا إليهِ هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيمٍ خذها إليكَ يا أعوَرُ

المباركفوري (١٣٥٣ هـ)، تحفة الأحوذي ٣٢٣/٧ • [فيه] أبو المختار الطائي [مجهول] وابن أخي الحارث الأعور [مجهول] [وفيه] الحارث قال الحافظ كذبه الشعبي في رأيه ورمي بالرفض وفي حديثه ضعف.

إذًا المعركة الأولى قبل المعركة العسكرية، قبل المعركة القتالية، قبل الحرب السجال، لا بد أن تكون معركة القرآن بدايةً. "أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا"[الرعد: ١٧] هذه هي معركة الماء، التي هي دائمًا معركة الوحي كما جاء أيضا في الحديث: "مَثَل مَا بعَثني اللَّه بِهِ من الحق والْهُدَى كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَاب أرضًا"[٣] .

"وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ"[الرعد: ١٧] مثال للحرب العسكرية؛ تلك لا بد أن تأتي، لكن بعد أي حرب؟ تأتي بعد الحرب الأولى، حرب الوحي (القرآن) ويجب أن ننتصر فيها،

فالإنسان الذي يريد أن يطمئن في زمن الاستضعاف عليه أن يتمسك بالقرآن، ويعلم أن المعركة معركة قرآن، ارتَبَطَ بالقرآن ورَبَّى الناس على القرآن، هو هكذا يُيَسِّر لليسرى، "وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى".

فبالتالي "فَذَكِّر" أي في وسط الحرب الإيمانية المذكورة في سورة البروج والكيد المذكور في سورة الطارق أستَمِرُّ في العمل؟! نعم.. كما قال تعالى: "وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ" آخر هود "اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ" وبعد ذلك؟ "إِنَّا عَامِلُونَ"، "وانتظروا" ماذا ستفعل بهم؟ "إنا منتظرون"[هود: ١٢١-١٢٢] أنا مثلي مثلك منتظر... انظر العبودية! تقول للناس انتظروا سترون، يقولون لك ماذا ستفعل؟ تقول لهم: لا أعلم أنا منتظر مثلكم، أنا عبد، أنا لدي وعود قرآنية أقرأها عليكم، ماذا سيحدث؟ أنا لدي وعود قرآنية، متى؟ وكيف؟ وأين؟ هذه بيد الله، أنا عبد "إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ" لكن في نفس الوقت "وما أنتم بمعجزين". أيضًا سيدنا نوح في سورة هود، استعجلوا العذاب "إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ"[هود: ٣٣] ، انظر الاستسلام المطلق!

إذًا سورة البروج ذكرت نوعًا من البشرى: "قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ"، سورة الطارق قالت لك: هذا القرآن المجيد؛ دورة إخراج المعاني منه وإخراج الرجال به مستمرة، سورة الأعلى قالت لك: أنت الأعلى طالما أنت متمسك بالوحي؛ لأن طالما أنت معك الوحي أنت الأعلى، ستبتعد عن الوحي ستخسر، ستخسر في المعركتين. إذًا نحن المفترض معركة القرآن منتصرون فيها دومًا، المعركة الثانية (الحرب) ستظل سجالاً إلى يوم القيامة؛ ننتصر ونُغلَب، ننتصر ونُغلَب، ننتصر ونُغلَب، إنما معركة القرآن لا بد أن يكون النصر فيها حليفك لو أنك متمسكٌ بالقرآن. إذًا من المعاني التي تجعلك تشعر أنك أنت الأعلى؛ القرآن، أنك متمسك بالقرآن.

---

[٣] [عن أبي موسى الأشعري:] إنَّ مَثَلَ ما بَعَثَنِيَ اللَّهُ به عزَّ وجلَّ مِنَ الهُدى والْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أصابَ أرْضًا، فكانَتْ مِنْها طائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الماءَ فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والْعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَ مِنْها أجادِبُ أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْها وسَقَوْا ورَعَوْا، وأصابَ طائِفَةً مِنْها أُخْرى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً، ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللهِ، ونَفَعَهُ بما بَعَثَنِيَ اللَّهُ به، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ بهِ.
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٢٨٢ • [صحيح].

كان الإمام سعيد النورسي في أيام أواخر الخلافة العثمانية وهجمة العلمانية ومصطفى أتاتورك، كان الرجل كثير التأمل والتدبر، وكان عنده بعض التصوف –فلم يكن العلم منتشرًا في تركيا– وكان أيام الحرب العالمية، كان الناس يدخلون عليه وهو جالس يتأمل في القرآن فيقولون له: ما الذي يجعلك تنشغل عن الحرب العالمية؟ فقال لهم: يوم القيامة، أي أنا مشغول بيوم القيامة عن الحرب، وكان سياسي ودخل في أحزاب إلى سن الخامسة والأربعين ثم اكتشف أن هذا الطريق لا طائل من ورائه؛ فترك الأحزاب.

المهم يقول: خُلقت الروح لتبقى وخُلق الجسد ليفنى؛ فكان غذاء البدن يفنى –البدن يفنى فغذاؤه يفنى "غثاء أحوى"– غذاء الروح باقٍ (القرآن)... كمال الحياة في الدنيا وفي الآخرة على حسب الاتصال بسبب الحياة الذي هو القرآن، بدليل: "اقرأ وارتق ورتل فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها"[٤]، أي كلما تزداد ارتباطًا بسبب الحياة (القرآن) تحيا حياة كاملة، كلما تبتعد عن القرآن تعيش في الحياة السفلى... لذلك هنا أحد معاني قوله تعالى "وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى"[الأعلى: ١١] الذي تجنب القرآن تمامًا، ماذا سيحدث له "الذي يصلى النار الكبرى"[الأعلى: ١٢]، قيل: النار الكبرى هي أسفل مكان في النار لأنه كان أبعد ما يكون عن آيات القرآن.

عبدالله بن الشخير عندما جاء النبي –صلى الله عليه وسلم– وقال: "يَقُولُ ابنُ آدَمَ: مَالِي! مَالِي! وَهَل لَكَ يَا ابْنَ آدمَ مِنْ مالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ"، ويقرأ "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ"[٥].

أي كل هذا يبلى ويفنى لأنه غذاء البدن، أما غذاء الروح الذي هو (القرآن) ربنا سماه روحًا، فكان روحًا للروح، غذاء الروح، الذي هو القرآن، على قدر اتصالك بالقرآن على قدر ما تعيش كمال الحياة في الدنيا وفي الآخرة؛ لذلك قال الله: "لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى"[الأعلى: ١٣] ليس هناك أي نوع من أنواع الحياة ولكن معيشة، ربنا سماها معيشة ضنكًا "ونحشره يوم القيامة أعمى"[طه: ١٢٤]

---

[٤] [عن عبدالله بن عمرو:] يُقالُ لصاحِبِ القرآنِ اقرأ وارتَقِ ورتِّل كما كنتَ ترتِّلُ في الدُّنيا فإنَّ منزلَكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤُها
الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح أبي داود ١٤٦٤ • حسن صحيح • أخرجه أبو داود (١٤٦٤) واللفظ له، والترمذي (٢٩١٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٠٥٦)، وأحمد (٦٧٩٩).

[٥] [عن عبدالله بن الشخير:] أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ وَهو يَقْرَأُ: أَلْهَاكُمُ التَّكاثُرُ، قالَ: يقولُ ابنُ آدَمَ: مالِي، مالِي، قالَ: وَهلْ لَكَ، يا ابْنَ آدَمَ مِن مالِكَ إلّا ما أَكَلْتَ فأفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فأبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فأمْضَيْتَ؟

مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٩٥٨ • [صحيح].

ليس هناك أي نوع من أنواع الحياة، الحياة الحقيقية تكون بالاتصال بالقرآن في الدنيا وفي الآخرة يُقال: "اقرأ وارتق ورتل فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأها"[٦]

"فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى"[الأعلى: ٩] أي تستمر في الجهد بالقرآن وتذكير الناس بالقرآن، قيل: "إن نفعت الذكرى" أي ستنفع حتمًا، وقيل: "إن نفعت الذكرى" إنك أنت تختار وتتحسس المواطن التي يحصل بها الاستجابة.. لا تكن مُبَذِّرًا، نحن كنا شرحنا كلمة (التبذير الدعوي)، مثل الفلاح الذي معه بذور ويرميها في أماكن لا تصلح للزراعة "فذكر إن نفعت الذكرى"

لا تسمع لهم حتى ولو صوتًا خفيضًا، أين من كان يقول: أنا ربكم الأعلى؟ أين من كان يقول: من أشد منا قوة؟ أين ذهبوا؟ اختفوا؛ وكذلك سيختفي كل ظالم، هذا واقع متكرر؛ ولكن القرآن محفوظ.. هذا الواقع في سورة البروج.

وفي سورة الطارق ربنا يطمئنك أنه حفيظ ويعلم ما يُخططون وما يكيدون والله يكيد لهم

سورة البروج كان فيها واقع إبادة، وأن هذا الواقع مستمر منذ أيام ثمود وقبل فرعون وفرعون، وهذا الواقع لم يأت بنتيجة "كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم" أين هم الآن؟ "هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا"[مريم: ٩٨] ، ركزًا قالوا: الركاز: المدفون "زكاة الركاز الخُمس"[٧] مدفون...

هنا في سورة الأعلى أنت بدأت تتحرك، في البروج والطارق ليس هناك حركة، هنا أنت تتحرك، عندما وقع في قلبك اسم الأعلى أصبح عندك نشاط لكن للأسف يأتي الإحباط..

منذ عدة أيام كنت أشاهد الأخبار، أخبار، أخبار... وأسمع: فلان فعل كذا وفلان حدث له كذا، وصلت البيت قبل المغرب لم أستطع أن أنزل لأصلي المغرب في الجامع، صليت المغرب في البيت ونمت، استيقظت في التاسعة والنصف لا أقدر أن أقوم لصلاة العشاء من الإحباط، لا أستطيع، نمت واستيقظت في العاشرة لا أقدر، استيقظت في الحادية عشرة لا أقدر، استيقظت في الثانية عشرة، صليتُ العشاء، وبعد وقتٍ استطعت أن أقوم لأصلي ركعتين بالأحقاف، وقتها بدأتُ أشعر أن الإحباط ينجلي، وبدأتُ أستنكر، ما الذي كان يشغل بالي؟!!

---

[٦] سبق تخريجه في الهامش رقم ٤

[٧] [عن أبي هريرة:] المَعْدِنُ جُبارٌ، والبِئْرُ جُبارٌ، والعَجْماءُ جُبارٌ، وفي الرِّكازِ الخُمُسُ.

البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٢٣٥٥ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٢٣٥٥) واللفظ له، ومسلم (١٧١٠).

حقًّا عندما تبتعد عن القرآن تصبح عاجزًا، لأنك تُفكِّر بِفكرٍ أرضي، والأرض أنت ليس معك أسباب، وتقرأ القرآن تجد ربنا يقول في سورة هود: "فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص"[هود: ١٠٩] أي لا يَهُمُّ ما معهم، الذين من قبلهم كان معهم، على أي شيء توكلوا؟! نحن متوكلون على الله.

ففعلاً القرآن يجعلك تتابع الأخبار من فوق سبع سماوات، يأخذك للأعلى فتشاهد الأرض، تكتشف أنها ذرة في هذا الكون، إهلاك أمم سابقة وتجد أناسًا يسيرون على خطى فرعون، فالله عز وجل يقول لك: أبشر، الذي كان يسير على تلك الخطوات انتهى، يَقْدُم قومَه يوم القيامة وهم يسيرون، يقع في جهنم وقومه يسيرون خلفه فيقعون في جهنم، والذين خلفه سيقعون في جهنم: "فأوردهم النار وبئس الورد المورود"[هود: ٩٨]، الله يقول لك: "فَلا تَكُ فِي مِريَةٍ مِمّا يَعبُدُ هؤُلاءِ ما يَعبُدونَ إِلّا كَما يَعبُدُ آباؤُهُم مِن قَبلُ وَإِنّا لَمُوَفّوهُم نَصيبَهُم غَيرَ مَنقوص"[هود: ١٠٩] انتهى.. "فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانًا آلهة"[الأحقاف: ٢٨] هل نفعوهم بأي شيء؟! لم ينفعوهم.. فاحذر أن يجعلك طول زمن الاستضعاف تَشُكُّ.

فهنا سورة الأعلى عندما تعيش مع اسم الله الأعلى وقوله: "لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك"[طه: ٦٨-٦٩] عندما شعرتَ أنك الأعلى بدأْتَ تُلقي ما في يمينك، لو لم تشعر أنك الأعلى ستخاف أن تُلقي ما في يمينك، ما الذي في يميننا؟ ليس عصى موسى، إنما في يميننا القرآن.

لذلك عندما شعرْتَ بمعنى اسم الله الأعلى بدأْتَ تتحرك "فذَكِّر"، بدأتَ تعيش وسط الناس وتُكلِّمُهم، الناس الذين يُبيدونك ويكيدون لك، تعيش وسطهم وتكلمهم؟! نعم أُكَلِّمُهُم عن الدين.. ودائمًا هناك من سيستجيب وهناك من سيُعْرِض، "سيذكر من يخشى"[الأعلى: ١٠] الذي عنده القليل من الخوف من ربنا هو الذي سيستجيب "سيذكر من يخشى* ويتجنبها" يتجنبها أي الذي ابتعد واتَّخَذ جانبًا، فمهما حاولتَ أن تُكلمه هو لا يريد رؤيتك "كأنهم حمر مستنفرة"[المدثر: ٥٠] مثل الحمار الوحشي الذي يجري، فرَّت من ماذا؟ كأنك أسد إرهابي ستفترسه، فيجرى منك، تقول له: لقد جئت من أجلك، يقول لك: لا أنتم إرهابيون، ويَفِرُّ، أي قد يصل لمرحلة أن يَفِرَّ منك، لا يريد أن يسمع عن الدين، يخاف أن يتأثَّر، لأنه لو تَأثر سيصبح مثلك، ولو أصبح مثلك سيصبح إرهابيًا!

"سيذكر من يخشى* ويتجنبها الأشقى" الشقاء يزداد على حسب البعد عن القرآن: "ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى"[طه: ٢] ، إذًا كلما ابتعد الإنسان عن القرآن كلَّما يشقى في الدنيا والآخرة، وكلما اقترب من القرآن كلما اطمأنَّ في الدنيا والآخرة.

انتبِه هنا، دائمًا السور المكية –خاصة في جزء عمَّ– تتكلم عن النقيضين، تتكلم عن من زكاها ومن دساها، أعلى عليين وأسفل سافلين، فهنا تكلمك عن الذي يخشى وعن الأشقى، "ويتجنبها الأشقى* الذي يصلى النار" أي نار؟ تحدثنا وقلنا: لماذا الكبرى؟ الكبرى هذه أسفل شيء، وأسفل شيء لماذا؟ لأنه أبعد ما يكون عن آيات القرآن، على العكس من أعلى واحد الذي ارتبط بآيات القرآن. "سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحي"[الأعلى: ١٠-١٣] هذا الذي تجنبها، والذي سمع الكلام: "قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى"[الأعلى: ١٤-١٥] الذي يتلقى القرآن لا بد أن يمر بهذه المراحل:

- رقم واحد أن يَتزَكَّى، يَتَزَكَّى أي يزكو، نفسه تَطهر؛ يكون إنسانًا طاهرًا.
- يتغير، الذي يتعامل مع القرآن ولا يتغير لا يكون تعامل مع حقيقة القرآن: "قد أفلح من تزكى" هذه النتائج بعد كلمة "فذكِّر"، وذَكِّر هذه أي بالقرآن.

الناس تجاه القرآن نوعان: (سَيَتَجنَّبُها) سيكون الأشقى ويصلى النار الكبرى.

والآخر سيسمع القرآن سيتزَكَّى، أول ما يتزكى سيحتاج أن يذكر اسم ربنا مباشرةً سيلهج بذكر اسم الله عز وجل، عندما يذكر اسم ربنا يكون قد تزَكَّى بعدها، "وذكر اسم ربه" لم يَعُد يريد أن يَذْكر الدنيا، لم يعد يريد أن يتكلم عن الكرة الأرضية، لم يَعُد يريد أن يشغل نفسه بالأرض وشهواتها، يريد أن يشغل نفسه بالله، لقد علم ما معنى الأعلى.

يقول الله عز وجل: "قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا"[الجن:١-٣] ماذا سمعوا؟! هل معنى أنهم قالوا إن الآيات التي سمعناها جعلتنا نأخذ قرارًا أن لا نشرك بربنا أحدًا "وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا"، هل كان لازم معناه أنهم سمعوا خواتيم مريم مثلاً؟ "وقالوا اتخذ الرحمن ولدا"[مريم: ٨٨] ، لا! أي آيات من القرآن تسمعها تجعلك تُعظِّم ربنا، الرد الطبيعي للإنسان المتلقي لكتاب الله أنه يجد عظمة الله في صدره، هذا طبيعي، أيًّا كانت الآيات؛ تجعلك تُعظِّم الله. لذلك الذي لا يُعظِّم ربنا لا يريد سماع القرآن، تجده اشمأز: "وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون"[الزمر: ٤٥]

فهنا "قد أفلح من تزكى* وذكر اسم ربه"، بعضهم قال: ذكر اسم ربه الأعلى الذي في السورة فماذا فعل؟ فصلى، لا تأتيك القدرة النفسية أن تقوم لتصلي في وقت الاستضعاف إلا عندما تعلم وتتيقن أن الله هو الأعلى، الأخبار قد تسبب إحباطًا نفسيًّا، ستقوم تصلي بقوة حينما تعرف اسم الله الأعلى، وأن الله عز وجل هو الأعلى، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن أي إنسان ضلَّ وحارب دين الله

أهلكه الله عز وجل، وذلك على مدار القرون فتستشعر اسم الله الأعلى، تجد نفسك تريد أن تصلي مباشرةً، لذلك: "وذكر اسم ربه" مباشرةً ف "فصلى".

أي في هذه الأزمات التي نحن فيها، لو عشت مع جهد أهل الباطل في الإبادة والكيد لن تقدر أن تفعل شيئًا، لو عشت مع اسم الله الأعلى ستجدك تفعل شيئين: تُذَكِر الناس بالدين، وتصلي.

تتذكرون "أنى يحيي هذه الله بعد موتها"[البقرة: ٢٥٩] ؟ الترتيب الطبيعي في اللغة العربية: فعل – فاعل – مفعول به، تعرفون اللغة العربية؟ –ربنا ينتقم من الذين أبعدوا الناس عن اللغة العربية– في اللغة العربية فعل وفاعل ومفعول به، فمثلاً: أكل أحمد العقيقة، أكل فعل، أحمد فاعل، العقيقة مفعول به. هذا هو الترتيب الطبيعي، عندما تقول: أكل العقيقة أحمد، أنت غيرت هنا في الترتيب، فهنا لا يهمك من الذي أكلها، المهم أن العقيقة أُكِلت، يعني أن كل ما يشغل بالك العقيقة، فالعقيقة سيطرت على ذهنك، فأنت قدمت المفعول به على الفاعل، هذا التقديم يفيد الاهتمام، من شدة اهتمامك بالعقيقة أخرت الفاعل، لم تفكر، ليس مهمًا من أكلها المهم أنها أُكِلت، إنما عندما تريد أن تسأل عن الفاعل تقدمه.

فالرجل قال: أنى يحيي ماذا؟ (هذه) هذه الأرض الميتة وأخر الفاعل (اسم الجلالة الله)، فلما قدم المفعول به يعني أنه كان مشغولاً بالتفكير في الأرض، ينظر في الأرض الميتة: ما هذا؟! صعب للغاية، كيف ستحيا هذه الأرض الميتة؟! لا. هذا مُحال، فقال: "أنى يحيي هذه" لسانه ذكر المفعول به الأول من كثرة اهتمامه به، لو كان ركَّز مع قدرة ربنا كان قال: يحيي الله هذه بكل بساطة.

لذلك عندما تأمل زكريا كثيرًا في المشكلة قال: "أنَّ" عندما ظل يقول: شعري شاب، ووهن العظم، وزوجتي عاقر، عاش داخل المشكلة فتعجَّب! فربنا قال له: لماذا تعيش مع المشكلة؟! قدرة ربنا "وقد خلقتك من قبل"[مريم: ٩] عندما تعيش مع قدرة ربنا ستقول: هو عليه هين، لو عشتَ مع المشكلة ستقول أنَّى تُحَلُّ؟! لو عشتَ مع الكيد والإبادة ستقول ليس هناك أمل، ولن تقدر وستُحبَط، وستنام ولن تقدر أن تصلي، ولن تستطيع فعل شيء، لا تريد أن تستيقظ حتى لا تسمع أخبارًا سيئة، وتستيقظ تسمع الخبر وتنام، ولا تريد فعل أي شيء، وتفتح الفيس بوك، وتكون في حالة سيئة، مخنوق تجلس قليلاً وتنام، إنما لو عشتَ مع اسم الله الأعلى تنتعش، "وأنتم الأعلون" – نحن هُزِمنا في أحد!– "إن كنتم مؤمنين"[آل عمران:١٣٩]، "فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى" [طه: ٦٦] ، "وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ"[الأعراف: ١١٦] ، وربنا يقول له: أنت الأعلى، أنا الأعلى في هذا الموقف؟! نعم، أنت الأعلى في هذا الموقف، "وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ" [طه: ٦٩] ، "فذكر إن نفعت الذكرى* سيذكر من يخشى"، "وذكر اسم ربه".

إذًا لو تذكرت وعشتَ مع معاني اسم الله الأعلى كما قلنا ستجعلك تنطلق في الواقع، لن تكون متأثرًا سلبيًا بالأحداث المحبِطة، لذلك إياك أن تترك الإحباط يؤثر عليك، كما قلنا قبل ذلك: ليس هناك عبادة اسمها عبادة الحزن، أي لا تتعبد لربنا بالإحباط! مثلاً يقال: هيا نخرج. تقول: لا. لماذا؟ أنا محبط الليلة، إحباط الليل وليس قيام الليل، الهم يجب أن يكون دافعًا للعمل، وليس همًّا يقيدك.

ليس معنى ذلك أن تضحك وتستهين، بل تحمل هم الأعداء لتحارب، وليس أن تحمل هم الأعداء فتُحبط، يجب أن تستعد "خذوا حذركم"[النساء: ٧١]. ليس معنى أنهم يمكرون أن تظل مكانك، لا. بل أنت تجاهد وتبذل.

عندما قال الله لسيدنا موسى: "اذهب إلى فرعون إنه طغى"[طه: ٢٤] كما أقول لك كلم هؤلاء الشباب، وانتبه هؤلاء الشباب مجرمون ويقتلون أي أحد يكلمهم! فربنا يقول لسيدنا موسى: "اذهب إلى فرعون إنه" ماذا؟ "طغى" ، فسيدنا موسى قال له إذا كان هو طاغية "رب اشرح لي صدري* ويسر لي أمري"[طه: ٢٥-٢٦] شرح الصدر وتيسير الأمر يجعلني أتعامل مع أي موقف بسلاسة، "قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى* قال لا تخافا" اعلم! "إنني معكما أسمع وأرى"[طه:٤٥-٤٦] تعلَّم صفات الله عز وجل، عش مع صفات ربنا ستجد المشكلة الضخمة صارت سهلة "ونيسرك لليسرى".

لذلك سورة الأعلى من السور التي تُقرأ دائمًا في المجامع، تُقرأ في العيد وفي الجمعة. ما أكثر سورتين يقرأهما النبي صلى الله عليه وسلم؟ الأعلى والغاشية، لولا الوقت كنا ذكرنا أيضًا معانٍ في سورة الغاشية.

والاثنان فيهما "فذكر"، أمره الله عز وجل أن يُذكِّر فيهما فكان يُذكِّر بهما قال له: "فذكر إن نفعت الذكرى"[الأعلى: ٩]، "فذكر إنما أنت مذكر* لست عليهم بمسيطر"[الغاشية: ٢١-٢٢] انظر الاستجابة! وعندما قال الله: "فذكر بالقرآن من يخاف وعيد"[ق: ٤٥] في سورة ق، فقرأها النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر، يعني عندما يقول له: "فذكر بالقرآن من يخاف وعيد" كانت هذه هي السورة التي قرأها النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر.

فهاتان السورتان للتذكير، لذلك السورة التي بعد الأعلى اسمها سورة الغاشية، الذي لن يرى بعد كل ذلك، هناك ناس سيظلون لا يرون إلى أن يطلع (الفجر) السورة التي بعد سورة الغاشية.

الفجر وبعدها البلد، البلد أيضًا استضعاف مرة أخرى، بعد البلد تأتي سورة الشمس، يخرج النور مرة أخرى، بعد الشمس يأتي الليل مرة أخرى، وبعد الليل؟ يأتي الضحى، يخرج الضحى مرة أخرى، انظر! تمكين - استضعاف، تمكين - استضعاف.. لذلك آخر سورتين قبل المعوذات، آخر سورتين: (النصر) تمكين، بعدها؟ (المسد) استضعاف. النصر قمة التمكين؛ الناس كلهم متجهون تجاهك "يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا"[النصر: ٢]، المسد أبو لهب يُبعِد الناس كلهم عنك، حتى لا يسمعون الرسالة.

فالمسد: الناس كلهم يبتعدون عنك، النصر: الناس كلهم يأتون إليك. فهذا الموضوع سيظل سجالاً، فلا تعتقد أن الحياة ستظل على حال واحد، لا: "وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء"[آل عمران: ١٤٠].

"وذكر اسم ربه فصلى" أكثر مانع من الاستجابة هو: "بل تؤثرون الحياة الدنيا"[الأعلى: ١٦] هذه هي الحقيقة، عندما تجد شخصًا يجادلك كثيرًا في القرآن، لا تجادله واعرف أن مشكلته في الدنيا.

نحن قلنا: القرآن يضرب المشاكل في مقتل، مشكلة العلمانيين لا تحتاج نقاشًا فلسفيًا، العلماني مشكلته حقيقةً مع الدار الآخرة، العلمانية أي العالم المنظور "Secularism" هو لا يؤمن إلا بما هو منظور مُشاهد، فمشكلته حقيقةً مع الآخرة أساسًا "بل تؤثرون الحياة الدنيا* والآخرة خير وأبقى"[الأعلى: ١٦-١٧]

الموضوع دائرة، تؤثر الحياة الدنيا، تبتعد عن القرآن، لا تستشعر معاني اسم الله الأعلى، تشعر بالهزيمة، إذًا دائمًا الخلل في الهزيمة وعدم الإحساس بالأعلى من أين يأتي؟ من إيثار الدنيا. راجع معي: "ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة"[آل عمران: ١٥٢] قالوا هذا الترتيب ترتيب عكسي، أي بدايةً: منا من أراد الدنيا، فعصينا من بعد ما أرانا ما نحب، فتنازعنا، ففشلنا، فسُحِب منا النصر. فآية غزوة أحد في آل عمران أتت بالترتيب العكسي، فلُبُّ الموضوع كان ماذا؟ "منكم من يريد الدنيا". وأظن أننا كان منا من يريد الدنيا "بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى* إن هذا لفي الصحف الأولى* صحف إبراهيم وموسى"[الأعلى: ١٦-١٩] ما معنى (إن هذا)؟ قيل: هذه المعاني التي في سورة الأعلى موجودة في صحف إبراهيم وموسى، لماذا؟ لأن إبراهيم وموسى -عليهما السلام- مرَّا بهذه المراحل التي تمر أنت بها من الاستضعاف، فاحتاجا لمثل هذا التصبير فجاءتهما هذه المعاني كما جاءتك، فنزلت عليهما مثل هذه المعاني: أن الله عز وجل هو الأعلى باستمرار الوحي وأنه لم ينقطع، فبالتالي هما سيطبقان الوحي وبالتالي سينتصران. وإن منهم من سيسمع الوحي ومنهم من سيُعرِض، والذي سيُعرِض سيصلى النار الكبرى.

وأتى باثنين من أعلى أولي العزم من الرسل: إبراهيم وموسى، كأن هذا الواقع يحتاج دائمًا إلى تصبير، مثل واقع آخر الـ (حم) قبل مرحلة القتال قبل سورة محمد. آخر آية في الـ (حم) التي في سورة الأحقاف: "فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل"[الأحقاف: ٣٥] دائمًا الواقع في النهاية هكذا كما في آخر مكة، هذا الواقع دائمًا يحتاج إلى صبر أولي العزم، فجاءت هنا صحف إبراهيم وموسى.

أسأل الله عز وجل أن يستعملنا وأن يصبرنا وأن يوفقنا وأن يُعجِّل بنصره، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

جواب الشيخ على سؤال: نحن نحارب بالقرآن، فبماذا يحارب خصمنا؟

قال تعالى مخبرًا عن فرعون: "فلنأتينك بسحر مثله"[طه: ٥٨].

لذلك عندنا سورة اسمها سورة الشعراء، لماذا الشعراء؟ الشعراء يقولون كلامًا، وأنت معجزتك هي كلام، ليست معجزة حسية، فدائمًا من يحاربك سيحاربك بكلام، سيحاربك بفكر، الفكر لا يُقضى عليه إلا بفكر، من يعتقد أنه سيقتل الإخوان المسلمين، لكن كتبهم موجودة وأفكارهم موجودة، الفكر لا يُحارب إلا بالفكر. مهما قتل لن يُحَصِّل أي نصر إلا بالأفكار، تريد أن تقتل فكرة حاربها بفكرة.

من سنن الله الكونية أنك إذا صدمتَ جسمين ببعضهما ينكسر الأضعف، مثلاً قطعة طوب وزجاج: ينكسر الأضعف. كذلك الأفكار، اصطدام فكرتين ببعض تنكسر الأضعف، لذلك من خبث الليبرالية أنها تتجنب الصدام، تأتي تصدم الليبرالية يقول لك: لا كل شخص من حقه أن يختار فكرته كما يريد، لا يريد أن يتناحر ويصطدم بالإسلام –كالشيوعية مثلاً– يقول لك: لا، رأيك حسن ورأيي حسن، دع كلاً منا جانبًا، لا يريد أن يصطدم؛ لأنه يعلم لو اصطدم سينكسر.